

يساوون أمثلة شادى الانسانية الأكبر ، ومعتصر خمر الآلهة ، لودفيج فون بهوفن .

« خفف الوطاء ما أظن أديم الأرض إلا . . . خفف الوطاء ما أظن إلا أنك تطرق أرضا مقدسة . صاح ! ولكن أين القبر الذى عبرت فينا لأقف به لحظة ؟ يا أهل فينا ، الأحياء منكم والأموات ، هل من يدلى على قبر الرجل العظيم ؟ » وكما عدت إلى الكتاب الدليل أشار دائما فى اتجاه القبر رفيع العباد . . . لباشمهندس بلدية فينا . ويحك يا كبير المهندسين ! ألا نفرغ من شأن هندستك وبلديتك اليوم ؟ ويح قبرك العالى يحجب الركن الهادى والرحبة المقدسة حيث يرقد بهوفن إلى جانب شوبرت ، إلى جانب برامز . هكذا أرادت فينا أن تجمع الرفات من هنا وهناك لتنشى ما أسمته ركن الموسيقيين ، وهو ركن غير جدير بهم خلف ذلك الضريح الصلف الذى أقامه لنفسه باشمهندس البلدية . وإن عزت الرفات على أهل فينا ، لا عليهم ، فالمثال يقيم نصبا وتمثالا لذلك الطفل الالهى ، مدلل أهل عبقر ، فلفجانج أماديوس موزارت . دفن بمقابر الصدقة ذات يوم مطير لم يسمح للمشيعين بالسير إلا إلى باب القرافة . ولما عاد الأصدقاء بعد أسبوع يزورون الرحوم ، كان خفار القبور ذهب للقاء ربه فلم يستطيعوا أن يعرفوا قبر موزارت . من التراب أنت يا موزارت ، وإلى التراب تعود !

أما بهوفن فقد صحت فينا ذات يوم من شهر مارس سنة ١٨٢٧ لتعلم بأن رجلها العبرى مات وذهب عشرون ألفا من أهلها يشيعون جنازة لودفيج فون بهوفن . ولو قدم كل منهم داقا أو درهما للعبرى فى أيامه الأخيرة ، لما احتاج إلى طلب المعونة من الجمعية الفلهارمونية فى لوندرة . ولا يضايق أهل فينا إلى اليوم ، وربما كان إلى غد وبعد غد ، إلا أن تذكرهم بأن الفلهارمونية اللندنية وحدها ، هى التى خفت إلى معونة بهوفن فى عوزه ومرضه الأخير . ونحن لا ننسى لها تلك المكرمة ، وبهوفن فى أحاديثه وخطاباته الأخيرة يريدنا أن نكرم دائما أريحية تلك الجماعة .

تقم أهل فينا على معنى التعريض بهم ، حين التجأ رجلهم العظيم إلى الجمعية الانجليزية ، فراحوا يلوثون سمعة خاصته بمناسبة سبعة أسهم متواضعة وجدت فى خزانة المتوفى كان يحرص عليها بهوفن حرص البخيل ، لتكون

إرث ابن أخيه الضال . فكتب صديقه شندلر إلى موشيلس في لوندرة يرجو « الدفاع عن شرف أصدقاء بهوفن والجمعية الفلهارمونية بمعاينة السفلة Kanailen Volk . يجب على الجمعية الفلهارمونية أن تذيب معرفة لوندرة بأن الحفلة الكبرى التي عزفت فيها السمفونية التاسعة والقداس الحافل لأول مرة بفينا في مايو ١٨٢٥ لم تجلب لبهوفن غير ثلاثمائة فلورين من الورق بعد أن دفع كل المصاريف ، ومن ضمنها ألف فلورين لادارة المسرح ؛ وأن المشتركين لم يدفعوا دافقا واحدا لمقاصيرهم ؛ وأن بهوفن ، وقد دعا شخصيا أعضاء الأسرة الامبراطورية لم ير واحدا منهم يحضر الحفلة . وأنه لم يرسل واحد من البلاط فلسا الخ الخ . . . كل هذا يجب أن يعرف ويداع . إن فينا ظلت تعلم بمرض بهوفن مدى شهرين ، فلم يفكر واحد من أهلها بحالته ولا بصعوباته المالية . ألم يكن من حقه في هذه الظروف أن يطلب المساعدة؟ فوالله لو لم تبادر الفلهارمونية إلى معونته لمات بهوفن ودفن مثل هايدن بشيعه خمسة عشر نفسا ! »

وقفت على ضريح بهوفن لحظات أتلو اسمه على صفائح رسمه الرمزي تعلوه مسلة قصيرة حفر عليها رسم قيثارة ، وأستعرض حياته من مسقط رأسه في بون على نهر الراين سنة ١٧٧٠ حتى وفاته سنة ١٨٢٧ بضواحي فينا . لحظات فيها من المناجاة ما يعرفه كل من حج إلى قبر عزيز . ولقد تعقبت آثار الموسيقى الجبار بمدينةته ، فزرت بعض المنازل التي سكنها في هايلجنشتات ونوسدورف ومنها ذلك المنزل المتواضع ، يصعد إلى مسكنه من قفاه داخلي على سلم يغطيه البلاط ، حيث أُلّف سنة ١٨٠٣ سمفونية البطولة « الارويكا » . وقضيت الظهيرة وما بعدها أتمشى في ذلك الركن من غابة فينا الذي يعرف اليوم باسم بهوفنجانج ، والذي كان يرتاده وهو يفكر في وضع ألحان سمفونيته الريفية « الباستورال » . ووقفت بتأمله العديدة المقامة في ميادين فينا ومتنزهاتها . وفي كل روحاتي وغدواتي تتجاوب ألحانه في رأسي ، فيختلط لحن « السونات إلى كرويتزر » بنغمات السمفونيات التاسعة والسابعة والخامسة والسادسة ، ويتألف كونهشرتو الكمنجة بكونشرتو الامبراطور أو بأنغام الأباسيوناتا والكواتيور الرابع عشر .

ذلك لأن ألحان بهوفن اتصلت بصميم حياتي الوجدانية والعاقلة اتصالا

غريبا . فكانت السمفونية السابعة أول ما سمعت من موسيقاه بل من الموسيقى السمفونية على الاطلاق ، والخامسة والسادسة أول ما فهمت ، والتاسعة أقصى ما ارتقت إليه روحى صعوداً إلى قمة الثالثة ، فى جبال الفن الرفيع .

كنت أستمع ذات يوم إلى إذاعة عربية عن تهوفن ، إذ حسبت - وليتنى ما حسبت - أن بلدى وأهل بلدى بدءوا يدركون من هو تهوفن ، وما هى الموسيقى التى رفع من شأنها تهوفن ، أو أن هناك على الأقل من بينهم من يبشر بموسيقى تهوفن . وإذا صاحب الاذاعة « يمثل » حياة تهوفن بتلك اللهجة المجوجة التى عودنا إياها ممثلو الطبقة الثالثة والأولى ! لهجة يختلط فيها نوح النادبات بجئير الحشاشين وردح الرادحات . لقد « مثل » الأحمق بحياة تهوفن ، دون أن يسمعنا ألعانه . إذ يبدو أن حياة الموسيقيين هى آخر ما وطننا العزم على معرفته هنا . أو لعل التعاسة والشقاء ، والعويل والبكاء ، هى كل ما قدر لنا أن نسمع به فى حياة الموسيقيين . أما موسيقاهم فبيننا وبينها ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروهه سواه ، بالذى أسكر ، والحمد لرب مقتدر ، وما إلى هذا من مفالك المفلوكين ونشيج المتسولين .

كانت حياة تهوفن حياة شقاء وتعاسة حقا ، وكانت كبتا متواصل لجمعية عواطفه النبيلة تشرئب نحو الحب والصدافة والزواج والأبوة ، فتخدع فى حبا المرة تلو المرة ويعيش الرجل وحيدا شقيا . ثم يصاب فى سمعه فيجتوى المجتمعات ، وهو محب للاجتماع فى المدينة الأرستوقراطية . وأخيرا يقبى ابن أخيه ، فتبلور حول هذا التعس كل عواطف الأبوة ، ثم لا يلتقى من ذلك المغامر النجس إلا السفه والنكران .

يبد أن ما ينسأه الذين لا يفكرون بغير حياة تهوفن ، أو ما يجهلون فى الأغلب ، هو أن موسيقى تهوفن ترتفع بصاحبها وسامعها إلى مجال من التهلل والفرح لم يصل إليه موسيقى من قبل ومن بعد . ولم يجد النقاد ما يصفون به السمفونية السابعة - « تمجيد الرقص » على حد تعبير ريشارد فاجنر - غير نسبتها إلى ديونيزوس إله النشوة المقدسة ، أصل المسرحيات الاغريقية ، فيقولون بأن الجذل الصادر عنها هو « فرح ديونيزياكى » .

ليس أبعد من تهوفن عن ألحان الأمل التى تبدو فى مثل السمفونية المؤثرة « الباتيتيك » لتشايكوفسكى . حتى المارش الجنائزى فى سمفونية تهوفن الثالثة ،

أوفى سوناتة البيانو ، لحن يستوحى جلال الموت فى رجولة ، ويحزن للميت البطل حزن الأبطال على الأبطال . ومهما صدرت ألحان بهوفن البطيئة — والحزن من صفات اللحن البطيء غالباً — عن آلام نفسية تؤثر فى سامعها تأثيراً بالغاً ، فإن السامع لا تنقبض نفسه كما تنقبض لسامع بعض ليليات شوبان المريض . أريد أن أنفى عن بهوفن أية صفة من صفات الـ morbidezza الرومانتيكية . وإنما ترتفع موسيقاه الحزينة ارتفاعاً يشبه فى كثير ما أتخيله عن الارتقاء إلى الأوج الصوفى . وألحان بهوفن تنتهى دائماً برنين السرور والانتصار . والصفة الغالبة عليها هى صراع بين الشاعر المتناقضة ، ينتهى دائماً بانتصار الفنان بفنه على صغائر الدنيا ومتاعب الحياة . وهذا النصر نتيجة اعتصار رجل الفن لنفسه ، وتقطير روحه تقطيراً يرتفع بها عن الدنيا ، ويستخرج من علقم الحياة والتجارب ، خلاصة الشهد الطيب والخمر المعتقد . أثر هذه الموسيقى فى سامعها ، وفيمن يوقعها ، لا يمكن أن يدانيه أثر موسيقى أخرى . ولقد تكلمت فى موضوع آخر عن النشوة التى أشعر بها وأنا خارج من قاعة الموسيقى السمفونية ، وجلها كان من أثر موسيقى بهوفن . وأذكر هنا ، فيما أذكر ، أمسية بقاعات السوربون ، من تلك الأمسيات التى كان أوركستر الطلبة يجتمع فيها ليوقع شتى القطع السمفونية . والرئيس يوزع على أدراننا موسيقى السمفونية الخامسة (دو مينور) . وإذا بذلك الأوركستر الغلبان الخائب ، المكون من ضعاف الهواة يهتز هزة رجل واحد ، ويسير فى إيقاع حركات السمفونية كلها من أولها إلى آخرها فى شبه نشوة علوية ، دون توقف أو تردد . وإذا بنا وبرئيسنا بعد آخر مازورة قد عرتنا دهشة بالغة ، فلا بد أن أمراً ما قد حدث حتى نوقع السمفونية بهذا المزاج وبمثل ذلك التوفيق .

الحقيقة أن السمفونية الخامسة من أقرب السمفونيات إلى نفوس عشاق الموسيقى . ولقد سمعتها عشرات المرات ، وأدركت تماماً أثرها فى نفسى وفى نفس السامعين . فى كل مرة أشعر بحدث جليل يمتلك على الأئدة وعيها وإحساسها . وليس هذا شأن السامعين فى عصرنا وحده ، بل فى العصور الماضية أيضاً ، وفى سنة ١٨٢٨ بالذات ، بعد مضى عام على وفاة بهوفن . سرت فى جمهرة السامعين قشعريرة إجماعية على أثر إيقاع السمفونية الثالثة — لحن البطولة

اسما وفعلا - بقاعة كونسرفتوار باريس « كانت هزة الاعجاب بهذا اللتان قد بلغ أقصى غاياته ، وهى الغاية التى تتعدى حدود الطاقة البشرية . . . لم تكن شبابيات وكنجات تسمعها ، وإنما هو العالم يتحرك بكلياته . . . وإني لأسائل من شاطونا هذا الشعور من السامعين : أكانت تلك الموسيقى من عمل البشر ؟ » قائل هذا هو الناقد والمؤرخ الموسيقى الكبير فيتس . أما الموسيقيون فقد تردوا فى الغيظ والكمد ، أو صرعوا بين العجب والاعجاب . وأرتج على أستاذ برليوز فلم يحرق قولا أول الأمر ، ثم عاد إلى منزله وود لو أنه لم يسمع . عاد كما يقول برليوز وهو لا يعرف مكان رأسه . ثم هو يشوب إلى رشده قليلا ويقول لتلميذه بلهجة جافية : ليكن ما يكون ، يجب أن نتجنب تأليف مثل هذه الموسيقى فيرد عليه الموسيقى الفرنسى العظيم برليوز بالجملة التى حفظها له التاريخ كما حفظ موسيقاه :

« اطمن يا سيدى الأستاذ . لن يؤلف أحد كثيرا من مثل هذه الموسيقى ! » وصف برليوز حفلة سنة ١٨٣٤ لإيقاع السمفونية الخامسة : « والناس حيارى أمام تلك الموسيقى الغلابة التى ينهض لها الجمهور منذ مطلع حركتها الختامية ، فيغطون بحماستهم على صوت الأوركستر . هذا إلى أن شعور الآلاتية بهذه الموسيقى كان يملك عليهم وعيهم امتلاكا ، والناس ما بين ضاحك وباك . . . ومدام ماليران (المغنية الكبرى فى ذلك الوقت) يغمى عليها فى مقصورتها . . . وضابط من ضباط نابليون القدامى يرفع ذراعيه للسماء صائحا : هذا والله هو لامبراطور . . . إنه الامبراطور ! »

قال رومان رولان : « مثل هذه الموسيقى تشع سحرا خارج نطاق العقل . لأن ذلك الأرفيسى الذى ألفها كان ، من بين جميع فناني الغرب الحديث ، أكثر الفنانين نشوة إلهية . كان فريسة القوى البدائية ، كان رجل الالهام والتصوير الدفين فى أقوى ما يصل به الوحي من عنف التركيز . وإن قوة التركيز هذى هى أولى الصفات فى عبقرية بهوفن ، بل هى الصفة الأساسية . . . » وأيا كان اللحن ، أينما كانت اللحظة من لحظات اللحن ، صفحة منه أو جملة ، فانك تشعر بكيان الرجل يغوص فى بحار الفكر غوصا . . . « وهو فى لحظات التجلى كان يبدو كمن أصيب بمس ، لأنه لم يعد يملك

نفسه ، وإنما هي الفكرة استحوذت عليه ، أينما وجد ، في الطريق العام ، أو في المتنزه ، أو بين الناس . فالعالم يتلاشى حوله إذ ينضوى على صور مخيلته ، يطارده الفكرة حتى يأخذ بتلابيبها فيلويها بين يديه ويحتضنها حتى ليمتزج بها . امتزاجاً ، ثم هو لا يخرج عنها إلا وقد حولها إلى صور متعددة . . . ذلك ما يحس به السامع لموسيقى بهوفن وهو يتابع إيقاع النغم وتواليه ، ويتأثر بتحولاته وتصويره ، ينزل إلى ظلام أغواره ، ويرتفع إلى أضواء قناته . . . بهوفن هو اليوجي الغربي . ذلكم هو سر سيطرة موسيقاه على الناس في كل زمان ومكان . »

O Freunde, nicht diese Toene ! sondern last uns angenehmere
Anstimmen und freudvollere !

Freude ! Freude ! Freude, schoener Goetterfunken,
Tochter aus Elysium !

يا جذوة الفرح ، يا بنت وادي الهناء ! أيها القبس الالهى الجميل !

هذا هو مطلع أود (قصيدة) شيلر « الفرح » التي ختم بهوفن بتلحينها آخر سمفونياته . وكان الفرح والتعبير عن الفرح أجلى آمال بهوفن منذ أيامه الأولى في مسقط رأسه على ضفاف الراين . وها هو ذا بعد أن حطمت الحياة وطحنته الآلام ، وقضى المرض على سمعه ، وهدت الأوصاب من بيته القوية ، يضيف الصوت الآدمى إلى السمفونية لأول مرة في تاريخ الموسيقى . كان لم يكفه ما تخطاه طول حياته من أوضاع في السوناتة والكونشرتو والرباعية والسمفونية ! هذا هو يلحن القصيدة لرباعي الأصوات ، ويداولها بين الرباعي والخورس حتى آخر السمفونية التاسعة . وفي ذلك يقول رومان رولان :

« عند ما يحين دخول لحن الفرح لأول مرة في السمفونية ، يتوقف الأوركستر فجأة فيعيم السكون ، مما يطبع دخول اللحن بطابع السر الالهى . أجل ! إن هذا اللحن إله يهبط من سماءه متمزلاً في أردان علوية . . . يلفظ الأحزان بأنغامه الرقيقة ، ويشيع البرء في القلب المكسوم . يبدأ اللحن هادئاً كظلمة على صوت القرار ، ثم ينتقل على ضربات المارش إلى بقية أعضاء الخورس ، مشية الجحافل ، كأنه يصرع الآلام في خطاه الظافرة . ثم يرتفع نشيد التنور

حارا منقطعاً كأنه أنفاس بهوفن وهو يتجول في الأجسام تحت وحى الإلهام ،
وصوته يرتفع بين الأغصان المتشابكة وقد أصابه مس كأنه الملك لير وسط
العاصفة . ثم ينتقل لحن الفرع من ذلك الايقاع الحربي إلى التجلي الديني
والنشوة المقدسة . هذه هي الانسانية تنتفض وترفع الألف إلى السماء تردد
صيححاتها ضراعة إلى القرع حتى تضمه إلى صدرها . »

ذلكم هو بهوفن الذي يتمثله بعض بنى قومي ندايا محترفا ، ولعلمهم
بحسبوه . . . موسيقارا . إنه الفلسفة والشعر والفن . اجتمعت في رجل .
قمة من قمم البشرية في وادي عبقر . هوميروس أو أفلاطون أو شكسبير ،
بل الثلاثة معا . الرجل الذي اجتمعت فيه ملكات الشعور الدافق إلى جانب
الاحساس الرقيق ، إلى قوة خارقة على التأليف في عالم النغم معبرا عن
إحساساته وأفكاره في انطلاق وتوازن ووضوح تكاتفت في تكوين قدرته على
الخلق عبقريات الأوائل من سابقه : يوحنا سباستيان باخ وهندل وهايدن
وموزارت . كما أوسعت تأليفه للأجيال التي تلتها ، والعبقريات التي استنارت
بنيراس موسيقاه آفاقا جديدة للخلق والابداع .

لودفيج فون بهوفن ، الذي ولد على ضفاف الراين سنة ١٧٧٠ ، ومات
بضواحي فيينا سنة ١٨٢٧ ، وعاش شطرا من حياته فاقد القدرة على سماع
موسيقاه بأذنه ، وإن كتبها بقلبه ، وسمعها بروحه ، وتخيّلها كاملة الأداء
في جنانه .

فلننصب إليه ونحن واقفون بجذته ، في ركن الموسيقيين بمقبرة زمرنج ،
خلف النصب العالى الذي أقامه لغروره باشمهندس بلدية فيينا . ولتسمع
موسيقاه أجيال من أهل الحضارة ؛ لأن الحضارة بغير بهوفن وإخوانه من
أهل الفن والفكر ليست إلا كلمة جوفاء . ولتصم آذان الرافضين والمشعوذين ،
نجوم الأزقة وملاعبي القردة ، فهم يعيشون على هامش البشرية الحقبة خشبا
مسندة ، مزوقة ملونة ، يحسبون أنهم آدميون متحضرون ، وهم أصغر قدرا من
الشعوب البدائية . فهؤلاء على الأقل ليسوا من أذعياء الحضارة .

خفف الوطء أيها الحاج إلى جدت بهوفن . ما أظن أديم هذه الأرض
إلا جديرا بالتهجد والركوع .